خميس يموت أولاً ..

قصة بقلم
علي زين العابدين الحسيني

١ ـ المطاردة

انعطف بسرعة البرق في الزقاق فارتطمت زخة الرصاص في الحافة المقابلة وتناثرت بعيداً شظايا جافة من الطين .

خمس ثوان ، هي كل ما يريد ، خطوة ، اثنتان ...

احس للمرة الاولى ان الزقاق يمتد الى ما لا نهاية . هل يمكن ان يتخلى عنه هذه المرة ؟ وهل يسمح لمطارديه بالعبور قبل ان يدفعه بعيدا ، بعيدا الى اعماق غابة البرتقال ؟

في الخطوة الثالثة لمح وجه صبية تقف خلف نافذة طينية . احس ان عينيها تصفقان له وتحثانه على الافلات من رصاص المطاردين .

اضمحل صوت المطاردين . طفت اصوات الهتاف والتصفيق ، الارض المخططة بالجير تعدو معه ، منافسة خلفه مباشرة ، وشريط النهاية على بعد قفزتين فقط . وجوه رفاقه في المدرسة مصفوفة في تلاصق ، كالجدار . لم يكن في مقدوره ان يخذل وجوه الرفاق فطار الى خط النهاية .

في الخطوة الرابعة ، رأى وجه زياد مثقوبا من الجانبين . « يجب ان لا يموت الثوار دفعة واحدة » اجتاحه احساس عنيف بالحزن والخجل معا لان ليس في مقدوره الا ان يفر من الموت او ان يموت .

في الخطوة قبل الاخيرة ، حملته عيون المتضامنين للخطوة الاخيرة ، صرخ : يجب ان أفلت . قبل ان يصل الى نهاية الخطوة قبل الاخيرة ، رأى وجه امه المتشح بالسواد ، وسمع صوت القطار الذاهب للصحراء . ها هي الاشياء تصحو ، فهل يقفز الموت عن رقمه هذه المرة ؟

الخطوة الاخيرة ، (بين البداية والمنتصف) هاجمته عيون الرفاق . تجول سريعا سريعا في المخيمات ، فالتعليمات القديمة ملغاة. وكان يجب ان يسبق مطارديه ورفاقه في آن واحد . في منتصف الخطوة الاخيرة (بين المنتصف والنهاية) اخترقه صوت هدير سيارة المطاردين، تناثرت كشظايا الطين الجاف رصاصات الاوزي ، اختلط الصوت الهاجم بالالوان ، والاخضرار ، تأرجح وجه زياد (كانت عيناه مغبشتين بحزن كثيف لانهم قتلوه قبل ان يدري) . تداعت الالوان وبهت دم زياد، فبقي اللون الاخضر وحيداً ، عميقا امام عينيه تماما . الارض .. الارض أنبتت له شجرات جديدة . رأى أذرع الاشجار تمتد اليه ، لمسته ، فمد ذراعيه بقدر ما يستطيع وبدا كالطائر قبل ان يغيب .

٢ ـ العبور

التصق بظهره بالشجرة . أرهف السمع ، تطلع الى الاشجار ، تحركت ، قال : جاء دورك (كان يدرك أن الاشجار كالناس ، مخلوقات ، تحس ، تسمع ، تبكي ، وتحب . لكنها لا تخون ، الشجر لا يخون الشجر) . تناهت الى أذنيه أصوات أقدام المطاردين وهي تسحق الاعشاب . أدرك عن ثقة ان بوسعه ان يخمن العدد ، كانوا غاضبين ، وكان أحدهم يتحدث بعصبية لجهاز اللاسلكي الصغير ، هم المذعورون الآن .. وعرف انهم لا يبحثون عنه وانما يتظاهرون بذلك امام بعضهم البعض (تأكد من ذلك حين انطلقت زخات جديدة متتالية من الرصاص وكان الرصاص غاضبا) . انتظر لحظة ثم قفز كالوميض . ازداد التصاقه بالشجرة عندما سرى اليه الدفء ، وبدا معها كتلة شجرية واحدة .

كانت الاصوات العبرية تتشاجر قريبا منه حين انتصبت امام عينيه ، عينان ووجه . للحظة خاطفة أحس ان الاشياء قد تخلت عنه ، وان ليس في وسعه الافلات فيما لو انطلقت شهقة الفزع من صاحبة العينين والوجه المتسمر امامه كشجرة ..

كانت تقف امامه وقد استدارت عيناها حتى اختفى الوجه . وبدا له انه آن يستطيع مطلقا ان يمنع الشهقة التي توشك ان تنطلق ، لكن شيئا من هذا لم يحدث ، وعجب كثيراً كيف تسبق الاشياء بعضها البعض ، وكيف استطاعت الصبية أن تختصر على نحو فريد دهشة الخوف ، وأن تحل رموز الامنية الطاغية في عينيه ، وتدرك الامر كله بمثل هذه السرعة ، بل وأكثر ان تبلغه في حوار سري صامت لا مثيل له ان عليه ان يتبعها .

٣ ـ الحوار

ـ أعرف انك واحد منهم .

غرقت عيناها في فرح طفولي. وتداعت الالوان على وجنتيها وفمها.

ـ كنت أنتظركم ، انتظرت طويلا قبل ان تأتي .

غرقت عيناه في لجة من الدمع .

ـ قتلوا زياد ، قتلوه وهو نائم .

ـ الاشجار تحبكم .. كان ينبغي أن تأتوا .

٤ ـ سهيلة تحب خميس

مثلما تغلق المحارة صدفتيها على اللؤلؤ السري ، خبأت سهيلة

خميس . قادته الى الخندق المموه . دهش ، فقالت : أعددته قبل ان تأتي فقد كنت أعرف .

صمتت ، تعثر لون عينيها بحبتين صافيتين من الدموع ، همست: أعترف انني كنت أبكي لانكم لا تأتون .

جلسا على حجرين متقـــابلين . سأل خميس سهيلة : من يملك غابة البرتقال هذه ؟

قالت سهيلة : البيارجي ابي ، ضحكت ، وقالت : وانا ابنته .

انتظرت أن يقول شيئاً . لم يقل . فواصلت : احفظ الاشجـار ظهرا عن قلب . أعرف أيضا أعمارها . احبهـــا كثيرا وهي تحبني ، المالك يأتي الى هنا في بعض ايام الصيف تيقضي نزهة عائلية ولركوب البغل . لكنني أحس عندما يأتون انهم ضيوف عليّ ، وعلى أبي .

طلعت الى عينيه . ابتسمت . قالت : تصـــور ان ابنة المالك لا تعرف ان الاشجار تثمر في السنة الرابعة .

ابتسم خميس وقال : أحقا ؟ ثم أعلن لها انه يثق بها تماما مثلما تثق الاغصان بالجذور .

حينئذ قالت سهيلة : علمني اذن شيئا في زمن الاحتلال .

◆◆◆◆ ◆◆◆◆

طرقت الباب مرتين ، توقفت ، وكررت ذلك مرتين . انفرج الباب عن وجه فلسطيني لكهل . تطلع برهة اليها ، ثم سحب ذراعها برفق للداخل وأغلق الباب باحكام .. ثبت عينيه بشدة في عينيها ، قال : وكيف هو ؟

أخرجت من ثنايا ثوبها الاسود رسالة .

فبلّل غطاء رأسها الابيض قبل ان تمضي .

◆◆◆◆ ◆◆◆◆

جاءت له ببندقية جديدة . قالت : علمني كيف ...

تردد برهة ، لكنه في نهاية الامر ، فعل .

كانت هناك بقعة من الدم وسط الشارع الرئيسي ، بينما كانت رائحة البارود تعبق في الجو ، وكان هناك عدد كبير منالجنود المجانين، أحدهم يغسل بقعة الدم ، وآخر يتحدث في بوق : ممنوع التجـول ، لكن احدا لم يعرف ان سهيلة كانت موجودة لحظة انفجار القنبلة .

◆◆◆◆ ◆◆◆◆

قالت لابيها الغاضب : أعرف كيف أحمي نفسي منهم ..

◆◆◆◆ ◆◆◆◆

قالت لخميس : قبلتك زوجا .

◆◆◆◆ ◆◆◆◆

٥ ــ الوعد

ان يظلا عاشقين حتى الموت للوطن .

٦ ــ المعركه

الافق مفعم باللون الرمادي . وفي الغرب كان الليل يتـــراجع ببطء امام زحف النهار . خميس لم ينم . عيناه تجوسان الغابة من طاقة الغرفة الخندق .

أصغى الى صوت انتظام انفاسها . تساءل امام وجهها الطفولي ، لماذا ينمو الصغار بسرعة في زمن الاحتلال ؟ أتاه صوتها رخيما ، يمطر حنانا ونعاسا : خميس .

اقترب منها ، قال : واصلي نومك فأمامنا الكثير لنفعله اليوم .

قالت : جاء دوري للحراسة .

ضحك ومرر أصابعه في شعرها الكثيف : القائد يعفيك .

نهضت . تناولت البندقية : لا امتيازات لزوجة القائد .

طال الصمت . قالت : هل تتوقع شيئا قبل الفجر ؟

أغمض عينيه على الصور القديمة التي تراءت . قال : هل سبق ان قلت لك انني تم أر أمي منذ ثلاث سنوات رغم انها تقيم في المخيم ؟

لمست يده المسكة بالرشاش ، أحس بدفء الاشجار . حـــاول أن يخترق حاجز العتمة الخفيفة ليرى عينيها . توجه الى الطـــاقة ، وكان صوته عميق الاسى : يجب ان لا يتحركوا بسرعة اكبر مما نتحـرك نحن ، لقد عثروا على عدة مخازن أسلحة وقتلوا ، كل يوم يقتـــلون لمجرد الاشتباه .

توقف عن الحديث بغتة وراح يحدق بقوة من الطاقة ، وسمعتـه يهمس ، اخرجي الرشاش الاخر ، اصوات سياراتهم تتوقف فجاة في مكان قريب .

سرت في جسدها برودة السلاح ، تأملتـــه في وقفته المعتدة ، المرة الاولى التي يداهمهما معا خطر واحـــد ، ودت أن يمتزجا تلك اللحظة معا ليصبحا كيانا لحميا واحدا . واجتاحها احساس عنيف بحب لا مثيل له لخميس .

كان صوته حارا حين قال : نحن مقبلون على معركة .

خطر لها انها ــ رغم الخطر المحدق به ــ فهي لا تخاف عليه من الموت ، بل هي تتمنى ان يواجها معا الموت .

مدت ماسورة الرشاش من الطاقة الاخرى .

غمرها صوته بعشرات القبل عندما قال : سهيلة ، ها نحن نقاتل معـــا ..

توقف ، وأدركت انه يوشك ان يقـــول ، سمعته وهو يقول ، ولكـن ...

تمنت أن يتوقف ، « نقاتل معا » ، هذا ما تريده ، لا تقل شيئا بعد ذلك ..

ود لو أن بمقدوره أن يطالع عينيها ، هل يحتمل أن يرى هـــذا الوجه مثقوبا ، او منكفئا بعنف على التراب ؟ سمع صوتها هادئا : أراهم.

ثار في ذهنه تساؤل ملح : هل يعرفون انه موجود أم انهم يبحثون عن شيء آخر ؟

أتاه صوتها حاسما : انهم يعرفون باننا هنا .

قطع صوتها صوت مكبر الصوت المألوف يدعوه للتسليم .

نظر اليها . أحست بذلك . فردّت بصرها عنه لتمنع ذلك الخاطر الذي قفز الى ذهنها ، هل يؤثر وجودها على قراره بالرفض ؟

سينهار كل شيء ، لو قال ، من اجلك لن استطيع .

هطلت دموع الخوف بشدة من عينيها .

أتاها صوته عميق الحنان : هل تبكين ؟

قالت : اريد ان ابقى معك . احبك اكثر عندما اكون معك .

طغى مكبر الصوت على الكلمات فلم يتبينها تماما : « نضمنحياتك لو خرجت » .

قال : هم لا يعرفون انك هنا ، يريدونني وحدي .

صاحت : بل اننا معا ، بل اننا يا خميس معا .

انحنى على صندوق الذخيرة ، تناول مخزنين ملتصقين للرشاش. مدت يدها بدورها الى الصندوق . توقفت على صوت مكبر الصوت : « نمنحك دقيقتين » .

اجتاحه غضب شديد من نبرة التهديد الواثق . أوشك ان يطلق النار . تطلع صوب سهيلة ، جاءها صوتـــه قاسيا ، كالثلج للمرة الاولى : أخرجي أنت ، يجب أن تظلي أنت .

قبضت على مخزني الذخيرة ، وقنبلة . ووقفت في تحد : ألم أقل لا امتيازات أيها القائد ؟

اكتشف ان صوتها اكثر طفولة حين قالت هذا .

واصلت فيما يشبه البكاء : ألم تقل انت انك تثق بي مثلما تثق الاغصان بالجذور ؟

اندفعت نحو الطاقة الاخرى .

كان صوتها عنيفا حـــين قالت : من سيطلق الرصاصة الاولى أيها القائد ؟

أحس بها تغوص ، تغوص فيه . وقبل ان تطلق رصاصتها الاولى حزن لانه اكتشف انه كان يفكر طيلة الـــوقت بالموت اكثر مما كـــان يفكر فيهم .

ود ــ حينئذ ــ ان يقول شيئا لسهيلة ، لكن زوبعة من الرصاص

كانت قد اندلعت في الخارج .

٧ ـ خميس يموت اولا

حين اصابته الرصاصة الاولى لم تعرف سهيلة . سمعته فقط تلك اللحظة يقول : انهم ايضا يقتلون الشجر . ولكنها اكتشفت ان خللا ما قد اصاب صوته (هو نفسه لم يكتشف ذلك) .. أطلقت زخة من الرصاص قبل ان تنظر اليه . رأت بقعة من الدم تحيط بكتفه ، بيد انها لم تجرؤ (أو هي لم تفكر) أن تقول ، تمنت لو انها بداخله لتشاركه الاحساس بالنزف وبعذوبة الموت معا .

أحست بشيء يغوص بنعومة في صدرها ..

رفضت ان تصدق ان الرصاص لا يؤلم .

بماذا يفكر خميس ؟

أطلقت رصاصا كثيرا قبل ان تلتفت اليه ، كان مبقعا بالثقوب الحمراء . لكن لدهشتها لم تحس بالخوف عليه من الموت .

تساءلت فقط : هل ينبغي أن يموت الابطال باكثر من طلقة واحدة ؟

خميس يموت ، ذراعه بدأت تتخلى عنه ، ما عادت تطيعه مثلما كانت . حاول ان يثني سبابته على الزناد ، لم يستطع . فبصق على يده .

داهمه صوت المنشدين « نقاتل واحنا واقفين .. » .

امتزج الصوت بالالوان .

غاصت في الجذع رصاصات مشط كامل .. الاشجار . يجب ان لا تتخلى الاشجار عنه الآن . حين رآها ذلك اليوم امامه حسبها للوهلة الاولى شجرة . حاول أن يدير عينيه صوب سهيلة .

بدا له مشهدها رائعا وهي منحنية على رشاشها ، تمنى لو انها تلتفت لحظة اليه ليرى الوجه الذي يعرف كيف يختصر الخوف ، والحزن ، والموت .

لماذا يكبر الاطفال بسرعة اكبر في زمن الاحتلال ؟

حاول ان يبقي عينيه مفتوحتين ، لكنه أحس ان ثمة من يغلقهما . يدها تغلق عينيه برفق ، هو يسمع الآن . حتى يوم أرهف السمع لم يكن في مقدوره ان يسمع بوضوح افضل من الآن . بوسعه ان يسمع حفيف ثوبها ، وارتعاشة الاهداب ، وضغطة اصبعها على الزناد . وعجب كيف يمكن للاصوات الصغيرة ان تهزم الاصوات الاخرى في الخارج .

عاوده وجه زياد .. دهش لانه يستطيع ان يرى زياد حتى وهو مغمض العينين .

أحس بشفتين تلتصقان بخده ، فبدأ يسبح في بحر من الفضاء الاخضر .

* * * * * * *

سهيلة كانت مفتوحة العينين ، أحست أن يدها تمسك بشدة يده ، فلم تدر متى حدث هذا . ومن ، من الذي جاء للاخر .

كانت هناك اشياء صغيرة ، صغيرة ، وغامضة في صدرها . هي تعرف انها لم تمت وانها ليست حية ايضا . احتوت عيناها عشرات الثقوب ، اطلقوا رصاصا كثيرا على الجدران ، ستغرق غرفتنا تماما عندما تهطل غدا الامطار .

هل تسمعني ؟

مالت بوجهها الى أسفل .

الصقت فمها باذن خميس ، هل تسمعني ؟ امامنا عمل كثير اليوم .

حاولت ان تضغط على يده ، هل قلت لك انني ذهبت الى المخيم وقابلت أمك ؟

اصطدمت أصابعها بفجوة عميقة في صدر خميس . مررت اصابعها في حنان بالغ حول حافة الجرح .

بدأت تبحث عن الفجوات الاخرى ، اثنتان ، ثلاث ، اربع ، يا خميس .

حاولت ان ترفع يده لتضعها على صدرها ايضا ..

لكنها لم تستطع .

فلسطين علي زين العابدين الحسيني

الجحيم

رواية لهنري باربوس

ترجمة جورج طرابيشي

يعتبر كولن ولسن بطل رواية « الجحيم » لهنري باربوس مثلا على اللامنتمي النموذجي في الادب الحديث ، ويروى ان هذا البطل يلجأ الى غرفته في الفندق ليغلق بابها ويعيش ليرقب الآخرين من ثقب الباب ، وتنطلق افكاره بصورة غامضة عن حب قديم وما فيه من ملاذ جسدية ، الى الموت « وهو أهم الافكار اطلاقا »، ويراقب من مكانه الغرفة التالية من ثقب في الجدار ليرى امرأة تتعرى فتلهب جسمه بسياط الشهوة . انه يرى اكثر واعمق مما يجب ، وهو لا يرى الا الفوضى » .

والحق ان باربوس يريد أن يقنعنا بأن اللامنتمي انسان لا يستطيع الحياة في عالم البرجوازيين المريح المنعزل أو قبول ما يراه ويلمسه في الواقع ، لان البرجوازي يرى العالم مكانا منظما تنظيما جوهريا وتمنعه دقائق حياته اليومية من الاهتمام بعنصر القلق المرعب الذي يحيط به . أما اللامنتمي فانه لا يرى العالم معقولا ولا منظما ، ويقذف بمعانيه الفوضوية في وجه دعة البرجوازي وهو يحس الكآبة العميقة ويشعر بأن الحقيقة يجب أن تقال مهما كلف الامر ، والا فلن يكون الاصلاح ممكنا ...

منشورات دار الآداب الثمن ٤٥٠ قرشا